

جدل القرآن (١)

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يُحتاج إلى برهان على ثبوتها ، أو دليل غلى صحتها ، ولكن المكابرة كثيراً ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق ، وتزينها فى مرآة العقل ، فهى فى حاجة إلى مقارعتها بالحجة ، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت ، والقرآن الكريم - وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة - وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله ، فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم فى أسلوب مقنع ، واستدلال ملزم ، وجدل محكم .

تعريف الجدل

والجدل والجدال : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم ، أصله من جدلتُ الحبل : أى أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه .

وقد ذكره الله فى القرآن على أنه من طبيعة الإنسان فى قوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (٢) أى خصومة ومنازعة .

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التى تلين عريكتهم فى قوله : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) .

(١) أفرده من المتأخرين بالتصنيف العلامة سليمان بن عبد القوى بن عبد الكريم المعروف بابن أبى العباس الحنبلى نجم الدين إيطوفى المتوفى سنة ٧١٦ هجرية .
(٢) الكهف : ٥٤
(٣) النحل : ١٢٥

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١) .

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين ، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة ، قال تعالى : ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ (٢) .

* * *

طريقة القرآن في المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لا يحتاج إلى أعمال عقل أو كثير بحث .

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلية على الجزئي في قياس الشمول ، أو الاستدلال بأحد الجزئين على الآخر في قياس التمثيل ، أو الاستدلال بالجزئي على الكل في قياس الاستقراء :

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون .

(ب) ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فُطِرَتْ عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة .

(ج) ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة ، وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجه ، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة للدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية

(٢) الكهف : ٥٦

(١) العنكبوت : ٤٦

في كتابه : « الرد على المنطقيين » : « وما يذكره النُّظَّار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإننا إذا قلنا : هذا محدث ، وكل محدث فلا بد له من محدث ، أو ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق . . لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » . . وقال : « فبرهانهم لا يدل على شيء معين بخصوصه ، لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلي ، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد أعرف الله » ، وقال : « وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه ، كقوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار . . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٤) فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه ، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه .

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولى أو تمثيلى ، بل هي مستلزمة للدلولها عيناً ، والعلم بها مستلزم للعلم بالدلول ، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن

(٢) الرعد : ٤

(١) البقرة : ١٦٤

(٤) الإسراء : ١٢

(٣) يونس : ٢٤ ، وسور أخرى .

من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها ، وهذا النوع من الاستدلال بدهى
يستوى فى إدراكه كل العقول .

قال الزركشى (١) : « اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين
والأدلة ، وما بين برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شىء من كليات المعلومات العقلية
والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به ، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون
دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين :

أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ
لَهُمْ ﴾ .. الآية (٢) .

والثانى : أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من
الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى
الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته فى
محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق ، لتفهم العامة من جليلها
ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم
الخطباء .

وعلى هذا حملَ الحديث المروى : « إن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حرف حدّاً
ومطلعاً » لا على ما ذهب إليه الباطنية ، ومن هذا الوجه كل من كان حظّه فى
العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر ، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على
ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولى العقل ، ومرة إلى السامعين ، ومرة
إلى المفكرين ، ومرة إلى المتذكرين ، تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك
حقيقة منها ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣)

وغيرها من الآيات .

واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق
المتكلمين . . . ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد ، بدلالة التمانع

(١) انظر : « البرهان » (٢ / ٢٤ وما بعدها) ، بتصرف .

(٣) الرعد : ٤

(٢) إبراهيم : ٤

المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) . لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ، ولا يتسق على إحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم ، وأراد الآخر إماتته ، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، والإله لا يكون عاجزاً .

* * *

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير في القرآن .

فمنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الرَّحْمَنُ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ لَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

(ب) ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد ، ولهذا صور مختلفة :

١ - منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالأستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ * أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ، أَمْ هُمْ

(٣) البقرة : ١٦٣ - ١٦٤

(٢) البقرة : ٢١ - ٢٢

(١) الأنبياء : ٢٢

الْمُسَيَّرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ ، فَلَيَاتُ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ
الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ
الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ
إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ .

٢ - الاستدلال بالمبدأ على المعاد ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ،
بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
سُدًى * أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِنْ مَنَى يَمْنَى * ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (٣) ، وقوله :
﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ
وَالْتَرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ ﴾ (٤) - ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد
موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله : ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى
الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ
الْمَوْتَى ﴾ (٥) .

٣ - إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها - كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ
الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا
وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ، وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ
فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٦) ردا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وَمَا
قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٧) .

٤ - السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها علة
للحكم ، كقوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ،

(٣) القيامة : ٣٦ - ٤٠

(٢) سورة ق : ١٥

(١) الطور : ٣٥ - ٤٣

(٦) الأنعام : ٩١

(٥) فصلت : ٣٩

(٤) الطارق : ٥ - ٨

(٧) الأنعام : ٩١

قُلْ ءالذَّكِرِينَ حَرَمَ أُمُّ الْأُنثِيِّنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيِّنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنِ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمَنِ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ، قُلْ ءالذَّكِرِينَ حَرَمَ أُمُّ الْأُنثِيِّنِ أَمَا اسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيِّنِ ، أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ .

٥ - إفحام الخصم والزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد -
 كقوله تعالى - ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) فنفى التولّد عنه لامتناع التولّد من شيء واحد ، وأن التولّد إنما يكون من اثنين ، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضاً فإنه خلق كل شيء ، وخلق له لكل شيء يناقض أن يتولّد عنه شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولّد عنها الأشياء بلا شعور - كالحار والبارد - فلا يجوز إضافة الولد إليه (٣) .

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمنظرة الأنبياء مع أمهم ، أو فريق المؤمنين مع المنافقين ، وما شابه ذلك .

* * *

(٢) الأنعام : ١٠٠ - ١٠١

(١) الأنعام : ١٤٣ - ١٤٤

(٣) هذه الفقرة من كتاب « الرد على المنطقيين » لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهي رائعة في

الاستدلال .